السّياسة في روايات المدينة الفاسدة في العقدين الأوّل والثّاني من القرن الحادي والعشرين

أ.د. يوسف حامد جابر *
منار العرب. **

ملخّص البحث:

تسعى هذه الدّراسة إلى البحث في أثر السّياسة في روايات المدينة الفاسدة " الدّيستوبيّة" التي تنطلق من واقع المجتمعات العربيّة ووقائعها، وتحاول كشف زيف ألاعيب السّياسة، من خلال الرّوايات التّجريبيّة، كما يتناول البحث دراسة السلطة السياسية تنظيرا وتطبيقا في روايات العقدين الأول والثاني من القرن الحادي والعشرين.

ويقوم البحث على دراسة الحروب والإرهاب في النّتاج الرّوائي، ويصور قتامة المشهد السياسي، والفساد الذي يعيشه المجتمع العربي.

الكلمات المفتاحيّة: المدينة الفاسدة . السّياسة . السّلطة . الإرهاب.

* أستاذ النقد الأدبي العربي الحديث قسم اللغة العربية. جامعة تشرين اللاذقية. سورية.
** طالبة دكتوراة في اللغة العربيّة وآدابها في جامعة تشرين . اختصاص: أدب حديث.

The Politics in the dystopian novels during the first two decades of the 21st century

***Dr. Yousif Hamed Jaber**

**** Manar Al-Arab**

:Research Summary

This study seeks to investigate the impact of politics in the "dystopian" corrupt city novels that stem from the reality of Arab societies and their realities, and try to expose the falsity of political tricks, through experimental narratives. during the first two decades of the 21st century

The research is based on the study of wars and terrorism in the fictional production, and depicts the bleakness of the political scene, and the corruption experienced by the Arab society

Professor of Modern Arabic Literary Criticism, Arabic Section, Tishreen University *.

** Student a PHD student in Arabic language and Literature in Tishreen University. Major: Modern Literature

مقدّمة:

إنّ المجتمعات بعامّة وليدة الظّروف السّياسيّة الماثلة في الوعي الاجتماعي والذّاكرة الاجتماعيّة للأفراد، ومتّصلة دوماً بالظّروف السّياسيّة المحيطة بها، إذ أنتجت الوقائع والأوضاع التي أفرزتها السّياسات، ظروفاً مأساويّة على الصّعيدين العربي والشّخصي، فانبرى الروائيّون العرب يميطون اللثام عن الحقائق الواهمة، ويكشفون عن الأبعاد والأهداف السّياسيّة التي دمّرت المجتمعات لارتباطها بسلطات فاسدة في دول عربيّة كثيرة. فغدا الرّوائي العربي بذلك حاملاً للهمّ الجمعي، محاولاً تبديده، متسلّحا بمعرفته ورؤيته الذّاتيّة وقراءاته للأحداث، لا سيما روائيي الرّواية التّجريبيّة الحديثة التي تركت للأصوات السّردية حريّات جديدة في التّعبير عن ايديولوجيتها ورؤيتها للواقع وللأحداث على حدٍّ سواء.

مشكلة البحث:

إضاءة جوانب السّياسة في رواية المدينة الفاسدة، في ظلّ الظّروف الاستثنائيّة التي نعيشها في يومنا هذا. وتكمن صعوبة البحث في حلُّ التَّرابط بين الدّين والسِّياسة، فكل منهما متشابك ومتورط مع الآخر.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى تسليط الضّوء على العلاقة بين السّياسة والنتّاج الرّوائي(الدّيستوبي) وهو بذلك يجيب عن السؤال المعرفي، فيما يتّصل بهذه العلاقة، إذ إنّ الرّوائي العربي اختبر المشهد السّياسي بعين بصيرته، وقدّمه بحلّة واقعيّة وفنيّة، تتّصل برؤياه للعالم.

الدراسات السابقة:

الدّراسات التي تناولت السياسة والسلطة كثيرة، منها:

– مبادئ في السّياسة والأدب: أحمد لطفي السّيّد.

السّلطة والسّياسة في الأدب السّلطاني: عزّ الدّين علّام.

– السّلطة وأثرها في الإبداع الأدبي عند العرب: د. ديزيره سقال.

– مفهوم الأدب السّياسي في العلاقة المتبادلة بين الأدب والسّياسة: رؤى حيدر.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفي التّحليلي الذي يحدّد الظّاهرة ويعاينها، ويقوم بتحليلها والغوص في مكنوناتها، بغية استنطاق الدّلالات المعرفيّة والفنيّة في كينونتها.

السّياسية:

إنَّ مفهوم السيّاسة مفهوم زئبقي، فلا يوجد للسياسة تعريف جامع مانع لها، و(السِّياسة مصدر ساس، وهي تنظيم أمور الدّولة، وتدبير شؤونها وقد تكون شرعيَّة، أو تكون مدنيَّة. فإذا كانت شرعيَّة كانت أحكامها مستمدّة من الدِّين وإذا كانت مدنيَّة كانت قسماً من الحكمة العمليَّة، وهي الحكمة السياسيَّة، أو علم السَّياسة. وموضوع علم السِّياسة عند قدماء الفلاسفة والبحث عن أنواع الدّول والحكومات، وعلاقتها ببعض، والكلام على المراتب المدنيَّة وأحكامها، والاجتماعات الإنسانيَّة الفاضلة والرَّديئة)[1].

[1] - صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ج:1، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982م ص 679-680.

وأما في الاصطلاح، فالسِّياسة تنصرّف إلى فنِّ الحكم وأساليبه وطرقه، وقد ربطها علماء المسلمين بالإمامة والخلافة، أمّا السّياسة بمفهومها الغربي أو العصري فتعني: كميَّة توزيع القوَّة والنُّفوذ ضمن مجتمع ما، أو نظام معيَّن، أو هي القدرة على فرض رغبات شخص ما على الآخرين. أو هي فن الإقناع والاستمالة والصِّراع من أجل البقاء[1]

وما يهمُّنا في هذا الصَّدد هو ما يجول في الأدب السِّياسي، والأدب المرتبط بالحكومات، وعلاقة الدُّول ببعضها الآخر في حالتي الحرب والسِّلم، إذ إنَّ هناك علاقة وطيدة فيما بين الأدب والسّياسة، فكليهما يهتمُّ بقضايا الإنسان، وظروف حياته، هذا ما يتوافق ورأي" ايغلتون" الذي يقول :(في الحقيقة، ليس ثمَّة حاجة لجرّ السّياسة إلى النّظريَّة الأدبيَّة، فهي موجودة هناك منذ البداية). [2]

وتتبدّى من هذا المنطلق وظيفة الأدب حينما يقدّم الممارسات الخاطئة للسّياسة عبر أداواتها على المواطنين، وما أفرزته السِّياسات العربيَّة الخاطئة من أوضاع خانقة للشّعب، لا يمكنه التفلُّت منها. وكيف استطاعت السّياسة التحكُّم في نفسيّة المواطن، وتنويم العقل العربي وشلّ إدراكه.

وهذا الأمر كثيراً ما لامسناه في روايات المدينة الفاسدة، إذ بيَّنت هذه الرِّوايات وجود شريحة اجتماعيَّة لم تنطلِ عليها لعبة السّياسة، وكانت واعية لما يدور حولها ويحاك في المشهد السّياسي. وهذا ما وجدناه في رواية فشير" مقتل فخر الدِّين " في مشهد التَّحقيق فيما يخصّ عدم تنفيذ الأوامر للاشتراك في المعركة، وتحرُّك الجند المصري من الظهران إلى حفر الباطن، أيام اجتياح العراق للكويت، إذ يدور هذا الحوار بين قائد الكتيبة وفخر الدِّين، الذي ينمُّ عن وعي البطل، وكشفه لزيف السّياسة وألاعيبها:

[1] - ينظر: زروُم، عبد الحميد محمد علي: مقاربات الخطاب السياسي عبر الأدب" دراسة تحليلية" مجلة الدراسات اللغوية، والأدبية، ع:2، الجزائر، 2015م، ص 192.

[2] - ايغلتون تيري: نظرية الأدب، تر: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، (د.ط)1995 م، ص326.

(هذا القتال أنتم المسؤولون عنه

- نحن المسؤولون عنه؟ هل نحن الّذين جعلنا العراق يعتدي على الكويت؟
- هذه سياسة، وأنا لم أشترك في السّياسة من قبل كي أتحمل الآن عواقبها.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنتم المسؤولون عن السِّياسة. أنتم وحدكم. لم تسألوني من قبل عن رأيي، لم تستشيروني، ولم أشترك معكم في قرار. أنتم تفعلون ما تشاؤون، ومن ثم فليس من حقكم أن تحمِّلوني تبعة أفعالكم) [1]

حاول فخر الدين في المقتطف الحواري فضح الممارسات السّياسية، التي كان بمعزل عن صنع قراراتها. وقد حاول قائد الكتيبة التنصّل بدوره عن المسؤولية في المآل الذي صاروا إليه، وجرّ مصر للاشتراك في حرب ليست طرفاً فيها، وقد أوضح الحوار إقصاء الشّعب عن صنع القرار السّياسي، وهذا ما يفقد أية سلطة سياسيّة شرعيَّتها، لأنّها فاقدة لأهم أسسها، وهي الديمقراطية. ويستمر الحوار على هذا النَّفس الدّرامي، إلا أنّه يكون في مرحلة ما أكثر جرأة، وقد بيَّن هذا المقتطف ما يسمَّى بالاستبداد السِّياسي، عندما يبقى الرَّأي السُّلطوي هو المهيمن، الذي يُقصي الرأي الآخر (لقد استند الاستبداد السّياسي على ركائز الاستبداد العقائدي والفكري والمعرفي والاجتماعي لدى النّاس، ولا أمل في التَّخلُّص من الاستبداد السِّياسي، قبل أن ينشأ تيار مؤمن بالدّيموقراطية قولاً وفعلاً، ومؤمن بأنَّ الرَّأي والرأي الآخر موجود، وله حقٌّ مقدَّس ومصان، يصحِّح المناهج الاجتماعيَّة في ضوء ذلك كلِّه). [2]

[1]- فشير، عز الدين شكري: مقتل فخر الدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط:3، 2009م، ص 189.
[2]- شحرور، محمد: دراسات إسلاميّة معاصرة في الدولة والمجتمع، الأهالي للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط:4، 1997م، ص200.

ولا يمكن لأيِّ باحث عربي في أدب المدينة الفاسدة في مجال السّياسة، ألّا يأتي على الحديث عما يسمَّى بـ "الرّبيع العربي " فهو سياسة مدروسة وممنهجة، ويستهدف –غالباً – الدُّول التي نسيجها الاجتماعي عبارة عن خليط ديني ومذهبي، وبالإمكان استغلاله لتدمير الدّولة، وكما هو معروف فـ (الدَّولة: هي أداة للتّعبير عن واقع يعيشه شعب ما.. وتعتبر الدّولة قمة الوعي المعرفي والأخلاقي والاجتماعي والسّياسي السّائد في المجتمع، لذا فهي بنية فوقيَّة لبنيَّة تحتيَّة، تمثّل العلاقات الاجتماعيَّة والاقتصاديّة السائدة والمستوى المعرفي.)[1] وقد تمَّ تعريف ثورات الرَّبيع العربي بأنّها (تغيُّرات واندلاع موجة عارمة من الاحتجاجات، أدَّت إلى تغيير جذري في النّظام السّياسي داخل العالم العربي، وانتشارها بسرعة كبيرة تمثّلت في نشوب معارك بين المتظاهرين، وقوات الأمن النظاميَّة، وصلت لوقوع قتلى من المواطنين ورجال الأمن وسقوط أنظمة عربيَّة استمرَّت عشرات السّنين).[2]

حرَّك جماهير الحراك الجوع والبحث عن الحريّات، والانقلاب على الأقليّات، إلّا أنّ ما يُسمّى (بالرّبيع) دمّر دوله، وخلَّف خراباً، أعاد الدّول ألف عام إلى الوراء، وقد جاءت الرِّواية العربية لتصوَّر الازدواجيَّة التي يعيشها الفرد المنادي بالإصلاح وهو من أكثر الناس فساداً، فقدَّمت نوال السَّعداوي، مشاهد من ميدان التَّحرير، تسم بعض المتظاهرين بالعار والفساد الأخلاقي، كالصَّحفي" شاكر " الّذي اعتدى على ابنة الخادمة سعديّة وهي فتاة قاصر، فتصف الروائيّة بأسلوب الرّاوي العليم، ما جرى في ميدان التّحرير : (تتكوّر سعديّة حول نفسها، تسمع من بعيد الهتافات، كان شاكر يمشي بين المتظاهرين، وهو يهتف ضدّ الظّلم والفساد، أيمكن أن يهتف ضدَّ نفسه أم أنَّه لا يعرف

[1] - شحرور، محمد: دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع، ص179.
[2] - السّواعير، سلام أحمد: توجّهات السّياسة الخارجيّة الأردنيّة تجاه أزمات الرّبيع العربي (2011- 2017 م) رسالة ماجستير في العلوم السياسية، إشراف أ.د. محمد القطاطشة، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، 2017م، ص19-20.

ما يفعله؟ وكيف لا يعرف وهو يملك العلم والمعرفة والقوّة والسُّلطة). [1] قام النّص على تقنيّة المفارقة، فالرّجل الذي كان يهتف ضدّ الفساد، هو الفساد في عينه. وقد تعمّدت السّعداوي بقصديّة استعمال الفعل المضارع في وصفها لأحداث خلت، لأنّ الفعل المضارع يفيد في التَّجدُّد والاستمرار، فكلّ تظاهرة في بلادها، سيرافقها أناس فاسدون مهما تبدّلت الأزمان.

ولا مراء أنَّ تسييس الإعلام بأجندته صورة من صور الفساد السّياسي، ويرتبط مفهوم الإعلام ومجالات الحياة بأواصر ثابتة وفق تراتبيّة منطقيّة تبدأ بالفرد أو الإنسان، وتنتهي بالمجتمع، وتستمدُّ من التراثي نمطَي الفرد الأساسين، أي النَّمط الفردي الفاعل والنَّمط الفردي المذعِن، (ويدعى هذان النمطان بالمؤثِّرِ والمؤثَّر فيه أحياناً، وبالنّمطين الإيجابي والسَّلبي أحياناً أخرى)[2]، إنَّ معياريَّة الحكم على الثَّقافة الإعلاميَّة تشترط . بحسب ما نرى . معرفة بمهارات التواصل وأساليب التلقي على وفق تقنيتي (التكيّف والتوجيه)، ويبدو أنّ الإعلام المصري كان موجّهاً بما يكفي لخدمة فئوية سياسيّة. وما من شكّ بأنّ وسائل الإعلام ليست التّابع الوحيد للسياسة، بل تتبّعها مؤسسات الدولة كلها وموظفوها، والسَّعداوي في الرواية عينها، استطاعت الولوج إلى وعي الأسرة المصريّة، فترة ثورة يناير 2011م، التي انتهت بتولِّي الإخوان المسلمين للسلطة، نقلت لقرّائها رؤية البيت المصري الواعي للأحداث الجارية، والتّضليل الإعلامي الذي تقوده سياسة الدّولة، فتتحدث ابنة الصَّحفيَين المراهقة " داليا" عن وجهات النظر المتباينة حول ثورة يناير 2011م، التي توجِّهها السّياسة في كثير من الأحيان: (أبي قال: تظاهرات شعبيّة يقوم بها الفقراء من أجل العدالة، لكن الرّاديو والتِّلفزيون والمعلّمات والمعلِّمين في المدرسة، كانوا يقولون : إنّهم البلطجيَّة والمجرمون يتآمرون مع المأجورين من الخارج على الوطن) [3]، وقد ركّزت السّعداوي في كتاباتها على الدَّور الإعلامي في نقل الصّورة أو

[1] - السّعداوي، نوال: إنّه الدّم، مؤسسة هنادي، المملكة المتّحدة، 2021م، ص162.

[2]- العاني، نزار محمد: أضواء على الشخصية الإنسانية (تعريفها، نظرياتها، قياسها)، وزارة الثقافة والإعلام العراقيَّة، دار الشؤون الثَّقافيَّة – بغداد، ط1 ،1989، ص45.

[3] - السعداوي، نوال: إنّه الدم، ص 120.

مايسمى بثقافة الصّورة، التي تخرجها وسائل الإعلام وخاصّة المرئيّة منها، وارتباطها بسياسة الدولة، إذ تقول في كتابها "كسر الحدود" (في مصر تمتلك الحكومة أجهزة الإعلام بالكامل، خاصّة الرّاديو والتلفزيون، معظم الصحف الكبرى تملكها الحكومة أيضاً، هناك بعض صحف معارضة إلا أنّها معارضة في نطاق محدود إن خرجت عنها فهي مهدّدة بالإغلاق).[1] وقد كثرت الدّراسات حول موضوعات وسائل الإعلام، وفاعليّتها في الوعي الإنساني، وقد طرح "آرثر بيرجر" موضوع الخطاب الإعلامي، وحدّد أهم النّظريّات المفسّرة لثقافة الوسائل الجماهيريّة[2]

والسّياسة على علاقة بالدّين، وهذا المشهد قد تكرّر كثيراً في تاريخنا العربي، إلّا أنّ المشهد كان أكثر عنفاً في العقدين الأخيرين من القرن الحادي والعشرين . وبحسب ظنِنا. إنَّ المسلمين شيء، وهذا الإسلام السُّلطوي شيء آخر، فالحكم يكون على إسلام السّلطة والفقه، أي إسلام المؤسّسة السائدة في العالم العربي، وليس على المسلمين الأفراد، فالمشكلة ليست مشكلة الفرد مسلماً أو عربيًّاً ،بل مشكلة إسلام السُّلطة والسّياسة، لذا يجب(فصل الدين عن الدولة أو حياد الدين)[3]،على اعتبار أنَّ السّياسة جزء من الثّقافة، وليس العكس، فالعرب جعلوا الثّقافة جزءاً من السّياسة، كما عدُّوها جزءاً من الدّين، وهذا الأخير شمولي، متداخل مع كل شيء.

ويبدو أنّ السّياسة كانت تتدخّل في أدقِّ تفاصيل حياة الإنسان العربي، حتّى وإن كان يحيا خارج البلاد العربيّة، فالسّياسة ستظلّ ملازمة له طيلة حياته، و المواقف السياسية متوارَثة من جيل إلى آخر، ونقصد هنا المواقف السّياسيّة العدائيَّة، ففي رواية أحببت

[1] السعداوي، نوال: كسر الحدود، مؤسسة هنداوي، سي آي سي، المملكة المتحدة، 2017م، ص 292.
[2] - من هذه النظريات: 1- نظرية الاستخدام والإشباع 2- نظرية الاعتماد 3- نظرية الجدولة 4- نظرية الاستنبات (وهي التي اعتمدتها سياسة مصر على حد زعمنا) 5- نظرية حراسة البوابة 6- نظرية التدفّق المزدوج 7- نظريّة الصّمت الحلزونيّة، يُنظر الغذامي، عبد الله: الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ـ بيروت، 2004م، ص 17.
[3]- عبد السلام، رفيق: في العلمانية والدين والديمقراطية (المفاهيم والسياقات) دراسات حضارية، مكتبة الجزيرة للدراسات، الدراسات العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ط1، 2016م، ص:17.

يهوديّة يقع البطل" معين" في حب امرأة يكتشف فيما بعد أنّها يهوديّة، وهو الفلسطيني الذي نزح أبواه إلى لندن بعد عام 48، فيصاب بالصّدمة والحيرة، فيسرد لنا الرّاوي هذا المشهد الوصفي في حيرة" معين" وقلقه إزاء هذه العلاقة:(كانت أمانيه ومخاوفه تتجادل مع بعضها البعض في غفوة منه، وتصبح وحيدة في مهب الرّيح، كيف لفلسطيني أن يفكّر في يهوديَّة ويحبّها، إلَّا أن يكون مجنوناً! ثم حتى ولو دّق بأنّ ما حدث رغماً عنهما، فكيف ينسى بأنَّها من سلالة اليهود الذين طردوهم من أراضيهم؟ وكيف سيكون ردة فعل والده وأخيه من هذه العلاقة؟). [1] يعيش البطل صراعاً داخليّاً مع ذاته، صراعاً مع ذاكرة جمعيّة بأكملها، تقاطع وترفض أي علاقة أو تواطؤ مع الآخر اليهودي، الذي كان وما زال يشكل تهديداً على الوجود الفلسطيني. والخط الثّاني للمواجهة، سيكون مع العائلة التي تعد أصغر مؤسسة اجتماعيّة، تمثّل المجتمع بأكمله الذي عانى من تبعات السّياسة العالميّة التي جمعت اليهود، وحشدتهم في فلسطين. وقد أفلح السّارد في استخدامه للتركيب الإضافي" مهب الريح" لسببين؛ الأوّل أنّ هذا التّركيب صورة عن حال الفلسطيني، الذي لا وطن له يأويه، والسبب الثّاني أنّ الريح وليست الرياح، تحمل معنىَ سلبيّاً يتواءم مع القلق، ولا يبشّر بالخير، وهذا ما قصده الرّاوي في تصويره لأثر الفساد السّياسي في حياة الفلسطيني.

السّلطة:

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا:(السُّلطة في اللّغة القدرة والقوَّة على الشيء، ولها عندنا عدَّة معان؛ نفسية: وهي ما نطلق عليه اسم السُّلطان الشَّخصي، أعني قدرة الإنسان على فرض إرادته على الآخرين....، وشرعيَّة: وهي السُّلطة المعترف بها في القانون كسلطة الحاكم، والوالد، والقائد، وهي مختلفة عن القوَّة، لأنَّ صاحب السُّلطة الشَّرعيَّة يوحي بالاحترام والثِّقة ...سلطة الدولة في النظام الديمقراطي مستمدَّة من رادة

[1] - خليل، وليد أسامة: أحببت يهودية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط:1، 2014م، ص 53.

الشَّعب، لأنَّ الغرض منها حفظ حقوق النَّاس وصيانة مصالحهم لا تسخيرهم لإرادة مستبدٍّ ظالم. ومن فرض سلطانه على النَّاس بالقوَّة، ولم يلي قوَّته إلى حقٍّ، لم يضمن بقاء سلطانه) [1]

ويرى ايلزوورث وستانكي أنّ أغلب قرارات السّلطة هي قرارات عاديّة من حيث[2]:

1- أنّ السُّلطة تلفت الانتباه للكثير من المشكلات المتكرِّرة والكثيرة الحدوث.

2- تنجز غالبيّة تلك القرارات العاديّة من أجل حلِّ المشكلات المتكرِّرة.

منذ القرن الخامس عشر بدأت الحاجة إلى وجود السّلطة واضحة، وقد رفع المفكّرون من شأن القوانين وقدّسوها، لاسيما في زمن الفوضى الأولى، ويرى برتراند راسل (كان للقرنين الثّامن عشر والتاسع عشر حظّ لا بأس به من النَّجاح في زيادة سلطة الدّولة إلى الحدِّ الضَّروري لحفظ النِّظام، وترك مقدار كبير من الحريَّة.) [3]

إنّ محاولة الاستيلاء على السّلطة كان سبباً مباشراً في إثارة غالبيّة الفتن والحروب التي قامت في الدُّول العربيّة، بدءاً بالخلافة الإسلاميّة الأولى إلى يومنا هذا، وكان تغيير السّلطة هو الهدف لأي حراك شعبي أو أيّة ثورة، والصراع لأجلها. أعني السّلطة . هو ما يذكي التّفرقة والتَّشتُّت والانقسامات المذهبيّة والطائفيّة. وهنا لا نريد الإنقاص مكانة السُّلطة، ولكن من باب أولى أن يكون هناك حراك وتحرك لتغيير بنيّة المجتمع الثقافية والفكريَّة، لذا إذا نظرنا في التّاريخ لم نجد أي تغيير في بنية المجتمع، فالسُّلطات التي تمّ تغييرها هي مثال لسابقتها وهكذا دواليك، لأنّه لم يتم تغيير المجتمع وضمان حقوقه وفرض واجباته على أفراده، وضمان حرياتهم الدينيّة والفكريّة.

[1] - صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ج:1، ص670.
[2] - يُنظر: كوبر، روبرت. ل.: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، تر: خليفة أبو بكر الأسود، مجلس الثقافة العام، ليبيا، 2006م، ص 169 – 170.
[3] - راسل، برتراند: السّلطة والفرد، تعريب: شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنّشر، بيروت، ط:1، 1961م، ص 49.

لقد بات واضحاً اليوم أنَّه لا يمكن الحديث عن السّلطة العربيّة بمعزل عن الدّين، والحقيقة إنّنا نرى بضرورة فصل الدّين عن السّلطة، لكي يعيش كل منهما سليماً معافى، ولسنا هنا في حالة دعويّة إلى الدّين، بل على العكس تماماُ، ولكننا نرفض تسييس الدّين، لتحريك الجماعات، وتسييرهم باسم الدّين، وكأنهم دمى متحرّكة مأخوذة بالعاطفة الدّينية.

ولنضف إلى ذلك، إلى أنّنا لا نجد في الخطابات الفكريّة المضادة للسلطة من يطالب بحقوق المرأة والإنسانيَّة بفهومها العام، بل إن أغلب الخطابات كانت تطالب بتغيير السّلطة لا غير، وكأنَّ السّلطة هي المشكلة، وليست المجتمع، فالمفكِّرون يظنون أنَّ حلَّ مشكلات المجتمع هو تطبيق النَّصّ الدِّيني، فتكون المشكلة في السّلطة التي لا تطبِّق النَّصّ الدّيني.

في العصر الحديث، في خضمّ النِّزاعات السّياسيّة التي أودت بالأمّة العربيّة، كانت الحركات والجماعات الدينيّة الانتهازيّة تلك التي طالبت بتولي سدّة الحكم، كانت تجد متنفّساً لها، لتظهر وتطفو على السّطح، وتقدّم طرحها للشعوب بأنّها المنقذ لها، بالإقناع والمنطق تارة، وبالتّرهيب تارة أخرى، إلّا أنّ مخططاتها لاستمالة الرأي العام كانت تبوء بالفشل، وفي هذه المرحلة سترتكب هذه الجماعات الفظائع بحق الآخرين، الذين يشكّلون تهديداً لوجودهم، لأنّهم يرَون أنّ إزاحة هذا الخطر هو مشروع قائم بحدّ ذاته، يرى حسن حنفي (أنّ الانبعاث الإسلامي كان قسيماً للنزوع القومي ثم صار وريثاً له مصححاً لطريقه متجاوزاً هزيمته وانكساره. بيد أنّ هذا الفهم جزئي بقف عند الرّاهن والعابر وليس شاملاً يحيط بالثَّابت الكلِّي). [1] وقد أثبت الواقع على الدَّوام فشل هذه الجماعات ومخططاتها في توليها الأمور السّياسيّة في البلاد، وهذا الأمر اختبرناه فعليّاً في روايات

[1] - عطية، أحمد عبد الحليم: جدل الأنا والآخر، قراءات نقدية في فكر حسن حنفي (سلسلة رواد الفكر العربي المعاصر)، مكتبة مدبولي الصغير، مصر، ط:1، 1997م، ص 268.

المدينة الفاسدة، حينما اجتهد الروائّيون، في تقديم الواقع والمشهد السّياسي كما هو بكلّ تجريديَّة، فـ (لولا الطّفرات الكاملة في القضايا البشريّة لما كانت ثمَّة استمراريّة كاملة). [1] بحيث يستطيع القارئ تفسير مقصد الرِّوائي، بحسب ثقافته السّياسيّة، فتتقد المخيّلة وتعيد صياغة المشهد من جديد، وتتناغم مع المشاعر الآنيّة التي تكتنف القارئ، ففي غرفة العناية المركّزة، وهي رواية سياسيّة بامتياز، قدّم عزّ الدين فشير الواقع السّياسي المصري، عبر سرد مواقف حصلت مع الأبطال، تم استرجاعها وأبطالها تحت الأنقاض جراء تفجير في السفارة المصريّة، فـ " المحاميَّة داليا الشّناوي " التي تنتمي إلى الأصوليين وتدافع عن قضاياهم، قد وقفت موقفاً وسطيّاً لا تشدّد ولا انحلال دينيين، إذ كانت ترى أنَّه لا ينبغي للإخوان المسلمين استلام السّلطة في مصر:(لا يحقُّ لمجموعة من الشَّباب المتديّن أن تأخذ القانون بأيديها وتحلّ نفسها محل الدّولة حتى وإن فشلت تلك في أداء واجبها، وإلّا تحوّل المجتمع إلى غابة يقوم فيها كل صاحب وجهة نظر بتنفيذ قانونه الخاص) [2] إنَّ الحركات الإسلامويَّة كانت – منذ القرن العشرين حتى يومنا هذا – تعتمد الآيات القرآنيّة لتكفير كل الأنظمة والسُّلطات الحاكمة، وهي بذلك ترفض ما يسمّى بالدِّيمقراطية، وكل ما يرتبط بها من إجراءات لتطبيق الدّيمقراطيَّة ، (وقد تمّ رفض كلّ ذلك من منطلق المفهوم المؤدلج الذي أصبح عنواناً فضفاضاً وهلاميّاً تبنته الحركات الإسلاميّة، وأسست عليها إيديولوجيتها الخاصة، سواء الحركات التكفيرية في حكمها على عدم شرعية هذه الدول وكفريّة مجتمعاتها، ومن ثم هدر الأنفس والأموال فيها، أو الحركات الإسلاميَّة المعتدلة، التي قبلت نوعاً ما بالدِّيمقراطية للوصول إلى السّلطة لكنها بناء على إيديولوجيتها الهلاميَّة فإنَّها تسعى إلى المطالبة بتطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة. لكننا نتساءل أي شريعة هذه التي تقصدها: أتقصد تلك الموجودة في كتاب المغني لابن

[1] - ايغلتون تيري: كيف نقرأ الأدب، تر: محمد درويش، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط:1، 2013م. ص224.
[2] - فشير، عز الدين: غرفة العناية المركّزة، دار الشّروق، القاهرة، (د. ط) 2008 م، ص 205.

قدامة الأندلسي، أو تلك المبثوثة في كتاب الأم للشّافعي) [1] ولعلنا لا نجانب الصّواب إن قلنا معترفين بأنَّ مجتمعاتنا لا تعي الدّيمقراطيّة بمعناها الأسمى، بل نستخدمها كشعارات مع وقف التطبيق، فالدّيمقراطية تعني بالحدود الدّنيا الاعتراف بالآخر، وتقبّله ضمن نسيج المجتمع وتكويناته، وهي تقوم على رفض الواحديّة أمام التعدديّة. يزخر رصيدنا الرّوائي العربي بالرّوايات التي تناولت سياسة السّلطات الحاليّة، أم السّلطات البائدة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، رواية " رحلة إلى الله" يعود بنا الكيلاني إلى خمسينيّات القرن الماضي، بعد تولّي جمال عبد النّاصر حكم مصر بعد الانقلاب على النّظام الملكي، والاستبداد بالإخوان المسلمين، الذين كان ينتمي إليهم عبد النّاصر قبل توليه السُّلطة، إلا أنّه أي . عبد النَّاصر. أخذ برأي "ميكافيللي"، الذي يرى بأنَّ الغاية تبرِّر الوسيلة، وأنجح الأمراء هم الذين لا يصونون العهود، ويأخذون بصفات لا إنسانيّة كالمكر والخداع والقسوة للحفاظ على ملكهم[2]، ورواية رحلة إلى الله عبارة عن عودة بالزّمن إلى الوراء، لمعايشة أحداث تاريخية مضت ممزوجة بالعواطف الإنسانيَّة، ولا يخفى على قارئ الرّواية انحياز الرِّوائي لجماعة الإخوان المسلمين، فالبطلة " نبيلة " تطَّلع على واقع الحال؛ من ملاحقة للمتهمين السّياسيين، و تعذيب المساجين ،بعد خطبتها لعطيّة، وكشفها لما يدور وراء جدران السّجن، فترسل برسالة إلى الرئيس و بعد أن حُدِّد موعد للقاء نبيلة بالرئيس جمال عبد الناصر، وصلت قبل الموعد بربع ساعة، وسألها أحد الرِّجال هناك، إن كانت تثق بسلامة تصرُّفات القيادة، وتقبّلها دونما نقاش، وقد استرسلا في الحديث، ويذكر لنا الرّاوي ما جرى من حديث بين نبيلة ومدير مكتب الرَّئيس: (نظرت إليه نبيلة في شيء من الدّهشة، قال: وللعلم فقد قرأ الرّئيس نفسه رسالتك بإمعان ووضع خطوطاً حمراء تحت فقراتها، إنّه لا يهمل أيّة رسالة ترد إليه، وهو يرحِّب بأيّ

[1] - شحرور، محمد: الدّين والسّلطة قراءة معاصرة للحاكميّة، دار السّاقي، بيروت، ط:1، 2014م، ص 99-100.

[2] - يُنظر: ميكافيللي: كتاب الأمير، تر: أكرم مؤمن، ابن سينا للطبع والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2004 م، ص 89.

قرار يقرؤه أو يسمعه أيَّ ترحيب، ويستفيد منه بطريقته الخاصَّة . أنت لا تعرفين ماذا كان في نيّة الإخوان المسلمين، كانوا يريدون قتل الرئيس، وتدمير البلد ...والاستيلاء على السُّلطة.. والاستناد إلى التعصّب الأعمى والجمود والفوضى ... أكنت تتوقّعين أنَّ أوروبا أو أمريكا أو روسيا سوف ترضى بأن يثبوا إلى الحكم؟ إنّ نجاحهم كان معناه القضاء على حريّة الوطن، والسّقوط في أيدي استعمار لا يرحم ... وليس من المعقول أن أعامل بالرِّفق واللِّين من أرادوا قتلي) [1]

أوضح المقتطف السّابق الأخطاء التي وقعت فيها حكومة عبد النَّاصر، فالرّواية عربياً هي أصدق السِّجلّات التَّاريخيَّة، والتّاريخ يكتبه المنتصر في العرف السائد، لذا تأتي الروايات الأدبيّة لتميط اللثام عن الحقيقة المشوّهة، وتطيح براية الإيهام برواية التَّاريخ، لاسيّما بعد مرور عقود من الزمن على الحدث، ونأي الروائي بنفسه عن موقع الخطر والمساءلة، تدفع به إلى أخذ المساحة الكافية لنفسه ولشخصياته لتقول ما جرى فعلاً بلا وجل أو خوف، فخطيب نبيلة كان يتولّى منصباً أمنيّاً رفيع المستوى، وكان يلاحق الشباب، ويزج بهم في زنزانات فرديّة، وينزل بهم أبشع الجرائم الإنسانية، ومثَّلت هذه الشّخصية الفساد السّلطوي من خلال العنف والاستبداد بالأطراف المعارضة للسُّلطة، والرئيس بذلك خلق شرخاً كبيراً بينه وبين شعبه، خاصة شريحة الشّباب الذي نُكِّل به.(..إن الفئات التكنوقراطيَّة والبيروقراطيَّة بجناحيها العسكري والمدني قد شكَّلت طبقة جديدة" بكل ما يحمله التعبير من معنى. ولم تكن " الاشتراكيَّة العلميَّة " هي الصَّيغة الصَّحيحة لتقدّم هذه الطّبقة، ومن ثم كان عليها فكريّاً أن تقف ضد الشِّعار وما يحتويه من أفكار ...وتلك كانت ملحمة الصِّراع بين عبد النَّاصر وبين نفسه. بينه وبين نظامه. بينه وبين دولته. إنَّه يعرف الطَّبقة الجديدة وهاجمها، لكنَّه يعرف أكثر أنَّه بحاجة إلى طاقاتها وخبراتها في الإدارة والتكنيك. ولو كان قد نجح في إقامة التَّنظيم الشَّعبي

[1] - الكيلاني، نجيب: رحلة إلى الله، قصة الإخوان المسلمين الدّامية، الصّحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 2012م، ص 235.

الديمقراطي بأوسع معاني الديمقراطيَّة للجماهير، لاستطاع أن يحمي نفسه وقراراته وجماهيره من سعار هذه الطَّبقة الوحشيَّة التي شاركت بنصيب موفور في هزيمة يونيو 1967) [1]

ولعلَّها ليست الرّواية الوحيدة التي عرّت فساد حكومة عبد النّاصر، وأبانت الوجه الآخر المخفي له، ففي رواية إنه الدّم، نجد " فؤادة" تستذكر ما جرى في طفولتها فقد (رأت أمّها تبكي ذات يوم وتصبّ اللّعنات على عبد الناصر وأعوانه – شويّة عساكر مجرمين يافؤادة، حطوا خالك محمود وعمك مصطفى في السجن، الكلمة ترنّ مفزعة بصوت أمِّها

السجن؟ تشرح لها أمّها ما حدث، محمود ومصطفى وغيرهما من الشباب في السجون، يعاقبون على نقدهم" سياسة عبد النّاصر" بالحرق بأعقاب السّجائر المشتعلة، ونفخ بطونهم بالخراطيم وضرب رؤوسهم بالشوم .... لم تكن تفهم بعد لا في السّياسة، ولا في الشّيوعيّة ولا الإخوان المسلمين)[2]

لقد أوضح المقتطف السابق العنف الذي يستخدمه موالو عبد النّاصر وأدواته، ضدّ كلّ ناقد، معتمدين سياسة كمّ الأفواه ومنع حريّة التّعبير، إذ من غير المقبول إيجاد أحزاب يساريّة تعارض السّلطة الحاكمة وتنتقدها، وقد فصّلت الشّخصيّة العذابات التي يتعرّض لها كل معارض، وهذا مطبوع في ذاكرة الأجيال، متناقلة بين الآباء والأبناء، وقد اختارت السّعداوي سرد هذه الأحداث بجملٍ اسميّة لما فيها من الثّبات والتّقريريّة إذ لا شكّ ولا جدل يعتري هذا التّوصيف.

إنّنا نجد في مواقف الروائيين تبايناً واضحاً من جماعة الإخوان المسلمين، وذلك بحسب معتقداتهم وإيمانهم بالحركة، وهنا أريد أن أوضح رأي الباحثة من جماعة الإخوان

[1] - الأنصاري، محمد جابر: تحولات الفكر والسياسة في الشّرق العربي 1930-1970، عالم المعرفة (35)، الكويت ،1980م، ص141.
[2] - السعداوي، نوال: إنه الدم، ص171.

المسلمين، فنحن لسنا ضد الإخوان كأفراد متدينين، فكل فرد ينتمي إلى نفسه، أمّا الإخوان المسلمين كحركة سياسيّة مرفوضة، فنظرتهم للإنسان وتقييمهم له، رهن الانتماء إلى الدّين الإسلامي، تلك الحركة التي لا ينتمي لها مفكّر أو مبدع، ولكن يهلَّل لها مثقفون كثر. وهنا نطرح السؤال الآتي: من أين جاءت حقوقهم في السِّياسة؟ وهم لا يعرفون من الإسلام إلا شؤون الدّين المتعارف عليها من قبل أي مسلم ينتمي لحزب سياسي أو لا ينتمي، وهم في ذلك يقيّدون الإسلام، شأنهم شأن الأصوليين حينما ينصبّ اهتمامهم على أسلمة البلاد، والانخراط في إكراه الناس على التمثّل لأوامر الإسلام، واستخدام العنف، والانصراف عن التّطوير الثّقافي والعمراني للبلاد التي يحكمونها والدفاع عنها، والأهم من هذا وذاك، تجريد الإسلام من أبعاده الروحيّة والتّامليّة. وجلّ الحلول التي قدّموها هي حلول رجعيّة بدائيّة تتناسب والصّحراء والجزيرة العربيّة التي انطلق منها الإسلام. وهناك الكثير من المسلمين الذين لا ينتمون إلى أي حزب، بل وعلى نحو معاكس تماما نجد أنَّ المسلمين الحق لا يبحثون عن السّياسة، ولنا في التّاريخ العبر فقد كان المسلمون من التّابعين يعتذرون عن تولّي زمام السّلطة، التي يسندها إليهم الخلفاء وولاة الأمر إليهم، لما في ذلك من مسؤولية أمام الخالق والعباد.

الإرهاب:

إنّ الدين الإسلامي الحنيف يمثّل الإنسانية السمحاء ويرفض مظاهر العنف والإرهاب، وقد امتاز برسالة السَّلام والتّفاهم، وطالب بامتلاك هويّة منفتحة، ونشر الدّين السّمح بأساليب متحضِّرة، والإرهاب مصطلح جديد، و(مع صور الرّعب التي بثّتها وسائل الإعلام في كل أرجاء الارض من نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول 2001، اكتسبت المجموعات الإرهابيّة وفجأة وضعيّة الفاعلين العالميين الجدد في

منافسة الدُّول والاقتصاد في المجتمع المدني، لقد صارت الشَّبكات الإرهابيَّة إن صح القول بمثابة " المنظمات غير الحكومية للعنف") [1]

منذ عشرات السّنين ارتبطت كلمة " الإرهاب " بتنظيم القاعدة، وما انفكّت الرّواية العربيّة الحديثة عن معالجة هذا الموضوع الذي يسوس في الفكر العربي، ويعيق حركة الثّقافة العربيّة والإسلاميّة، ففي "حكاية وهابيّة " يدور حوار بين الرّاوي وعمر المنتمي إلى تنظيم القاعدة، ويتعمّق الرّاوي في أسئلة حول المواهي، ويوجّه له الأسئلة المباشرة حول رأية بالتّنطيم وعمليّاته المرتبطة به: (– أولاً هذه العمليات ليست إرهابيّة ثم إن..

- لحظة، لحظة، كيف ليست إرهابيَّة وقتلاها من الضَّحايا المدنيين؟
- وماذا عن قتلانا في فلسطين والشيشان والعراق؟ أليسوا من الضحايا المدنيين؟ أليس قتلهم إرهاباً؟ لماذا لا يوصف قاتلوهم بالإرهابيين؟)[2]

لقد أوضح المقتطف السّابق صراعاً في الإيديولوجيات التي تتحاور، وتعبِّر كلاً منها عن نفسها بصوت عالٍ، والنّظر إلى الإرهابي لا يوجَّه إلّا نحو سلاحه، ولا يتمّ معالجة أفكاره، وما يعتلج في داخله من مشاع، لإعادة بناء الإنسان المشدود إلى العنف، لذا دائما ما تبوء محاولات منع الإرهاب بالفشل، لأن تحديد المشكلة خاطئ، فسيكون علاجها خطأ آخر، ومعالجة الإرهاب بالإرهاب نفسه، لن يزيد الأمور إلّا سوءاً، وهذا الفكر هو فكر الإرهابيين أيضاً، وقد بدا أنّ الإرهاب صار حقيقة واضحة ومرئيّة، وليس ردة فعل، ولأنّه الفعل الصادر عن الطّرف الأضعف سياسيّاً ودوليّاً، فإنه لا يقتضي التّحقّق، وإنّما سيتطلّب ردّة فعل عليه، يتعامل معه بحسب الشّرط الجديد. ويستمر الحوار بين الطّرفين، لنغوص أكثر في عمق الشَّخصيّات

[1] - بيك، أولريش: السلطة والسلطة المضادة في عصر العولمة، تر: جورج كتورة وإلهام الشعراني، المكتبة الشرقية، بيروت، ط:1، 2010م، ص54

[2] - المفلح، عبد الله: حكاية وهابية، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، ط:1، 2013م، ص55.

ونتعرَّف عليها أكثر ليمارس الروائي عملية تثقيفية للمتلقي من دون أن يعلم، فيطرح الرَّاوي سؤالاً على عمر: (– عرّف لي ماهو تنظيم القاعدة، ماهي أفكاره؟

- تنظيم القاعدة هو تنظيم إرهابي أنشأه أسامة بن لادن وأيمن الظَّواهري يريدان منه بحسب زعمهما، رفع الظُّلم والضّيم عن أهل الإسلام، والوقوف في وجه الهجمة الشَّرسة التي تقودها الولايات المتَّحدة و " إسرائيل " ضدَّ المسلمين والعرب منذ عشرات السِّنين) [1]

إنّ الحرب على الإرهاب هي إرهاب آخر، وغطاء له، ولم يتضرّر بسببه إلا العرب خاصّة والمسلمون عامّة، والحرب على الإرهاب لن تُفهم إلا حرباً على البشر أنفسهم وعلى طموحهم، وكل ما يدمِّر طاقات البشريّة هو بذرة الإرهاب نفسها، والولايات المتّحدة أخذت موقعين تاريخيين من الإرهاب، الأوّل؛ الضّحيّة، والثّاني؛ المحارب الرّادع (لم تكن الولايات المتحدة وحدها ضحية الاهتداءات الإرهابيَّة، بل صارت أيضا الشَّريف المدَّعي العام عن العالم بأكمله، لقد صارت المحكومة والمنقذة في الآن نفسه، لقد أسهم التَّهديد الإرهابي بإظهار مشاعيَّة السُّلطة، يبدو أنّ التّهديد أسدى للقوى العسكريّة وللدّول الأكثر ديموقراطية فيها إذناً لا حدّ له باصطياد الإرهابيين أو إذا أردنا أنّ هذه الدّول والقوى تسلّحت بذلك رغبة منها بدفع هذا الخطر عن الإنسانية، واستناداً إلى الحجَّة التي تقول إنّ الإرهابيين لا يتصرّفون من تلقاء أنفسهم بل استناداً إلى دعم ضروري يتلقونه من دول الشّرّ) [2] .

يكشف الواقع العربي عبر الإرهاب على وجهه الأكثر صحّة ودقّة، إذ يكون التّاريخ أشدُّ كثافة وتعقيداً، تكون انعطافاته أكثر إضاءة وكشفاً. وقد أوضحت الرِّواية العربيّة أنّ العنف والإرهاب أمران فطريّان، توجد بذوره داخل النَّفس، وما إن تتوفّر البيئة المناسبة

[1] - المفلح، عبد الله: حكاية وهابية، ص 56.
[2] - بيك، أولريش: السلطة والسلطة المضادة، ص 59.

التي ترعاه، فإنّ هذه البذرة ستنمو، وتظهر على السّطح، وهذا ما نجده في رواية الطّريق إلى الله على لسان "عطية العطواني"، بعد أن سنحت له الفرصة الدّراسة مع عمالقة رجال النّازيّة الالمانيّة، ومحترفي التّعذيب (في الواقع أنا لم أستفد كثيراً من هؤلاء الخبراء، لقد أكّدوا لي دائماً أنّني بطبيعتي أعرف الكثير ممَّا يقولون.. لقد آمنت من قديم أنَّ أيّ نجاح سياسي لا يثبت أو يستقر إلّا في ظلِّ فلسفة التَّخويف والإرهاب، والقضاء على البعض حتَّى يعتبر الآخرون، ويستسلموا ولن تخسر البلد شيئاً إذا قتلنا خمسة في المليون هذه نسبة لا تذكر) [1] . أوضح المقتطف السّابق ما يسمَّى بـ "عنف الدّولة " ويرى د. طه عبد الرحمن: (إنّ استعمال لفظ العنف في حقِّ الدَّولة أكبر من نفعه؛ وعندي أنَّ سلطة الدّولة تكون قوّة متى لزمت صراط العدل، وتكون عنفاً متى حادت عنه؛ وحينئذ يجوز أن نقول: "عنف الدّولة في مقابل "قوّة الدّولة" إذ يكون عنفها إذ ذاك مظهراً من مظاهر الضّعف الذي يعتري سلطتها؛ وواجبها أن تكون هذه السّلطة قوّة لا عنفاً) [2]

وقد زخرت الرّواية العربيّة بمظاهر الإرهاب وتنوّعاته، واختلاف أدواته، وتباين فئاته؛ وهذا ما نعيشه اليوم ونعاينه، لأنّ الفهم الخاطئ للدِّين وتعدّد قراءاته، وتأويلاته نحّت النّص القرآني جانباً، وبدأ الاهتمام بالتّأويل والتّفسير، وهنا أعود لأقول إن هذا الفهم المشوَّه هو سبب نكبة الأمة الإسلاميّة، ولا بدّ من فصل الدّين عن مناحي الحياة لتستطيع الدّول أن تتقدّم وتتطوّر، ولا يبقى مجال أو منفذ للسيطرة على العقل العربي، حتى الدّول الأوروبية لم تثبت وجودها إلّا بعد أن تمّ فصل الكنيسة عن الدّولة، الإرهاب إذاً على علاقة بالدّين، وهذا سبب كافٍ لاستقدام المقاتلين من الجنسيَّات كلِّها لتنفذ مهاماً عُنفيَّة على الأرض العربيّة، ومن الرِّوايات التي رصدت ذلك رواية "غرفة العناية المركَّزة،

[1] - الكيلاني، نجيب: رحلة إلى الله، ص54.

[2] - عبد الرحمن، طه: سؤال العنف بين الائتمانيّة والحواريّة، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط:1، 2017م، ص 39-40.

التي يقوم فيها "باكستاني" بتفجير السَّفارة ، ويصف العميد أحمد تفاصيل الوقيعة إذ يقول:

(عندما رأيت ذلك الباكستاني تذكّرت صورته اللَّعينة، وبرق كل شيء في ذهني دفعة واحدة. كنت مازلت أصرخ في وجه رجل الأمن عندما أكمل عقرب الدقائق دورته وتمَّت السَّاعة العاشرة. تخلّل الهواء قليلاً وماعت الأشياء في وقفتها ثم انطلقت في الهواء، وتبعثرت وتطايرت وارتطمت وتخلَّعت وانهالت وانفجرت وملأ الغبار الهواء. كان رجل الأمن مازال يشير إليَّ بإصبعه مهدِّداً وكان الباكستاني مازال ساجداً عندما رأيتهما ينفجران معاً وجسديهما يتبعثران قطعاً في الهواء المصطبغ بالدّم. رأيت رأس رجل الأمن تشرع في الاستدارة للخلف في اللّحظة الأخيرة قبل أن تختفي مع بقيّة الأشياء المتناثرة ورأيت الأرض وهي تهوي وتبتلع المكاتب..) [1]

بيّن المقتطف السّابق ارتباط الإرهاب بالدِّين، وقد عزّز هذه الفكرة المفارقة التي قدّمتها صّورة الباكستاني وهو يسجد، إذ إنّ من يقتل لا يعرف الله، إلّا أن الرِّوائي استقدم هذه الصُّورة بقصديّة واضحة، لتحقيق الصّدمة لدى المتلقِّي الواعي الذي لا يعترف بهذا النّوع من الأسلمة المزيَّفة، والإيديولوجيا الملوَّثة، وقد أبدع الرّاوي الشّاهد بوصف تفاصيل مريعة للعنف الذي نفِّذ في سفارة عربيّة، ومن قام بهذا الفعل رجل لا يمت للعرب بصلة. وفي ذلك إشارة إلى الارتباط الشّبكي للإرهابيين، والقدرة على التحكّم بهم حيثما كانوا.

إنّ الإسلام شرّع الجهاد المشروط، وقد حرّم قتل غير المقاتلين والنّاس العُزَّل، ونهى عن زهق أرواح الأبرياء، وشريعة الإسلام السّمحة تنبذ أشكال العنف كلِّها، وعلى وجه الخصوص ذاك النّوع القائم على التّطرف والإرهاب، ولعلّ رواية " الورم لمجمد السّاري " من الرِّوايات التي تمرّست في تصوير الإرهاب" الدّاخلي " وهذه الرّواية تناولت الفترة

[1] - فشير، عز الدّين: غرفة العناية المركّزة، ص 165-166.

السياسيّة والاجتماعيّة للجزائر بعد أحداث عام 1988م، والتي عمّت فيها الفوضى والانقسامات، وكثرة الفصائل الأطراف التي تدافع عن إيديولوجيتها بطريقة العنف والإرهاب في كثير من الأحيان، تبدأ أحداثها مع البطل " كريم " وهو إنسان طيّب يرفض العنف، إلّا أنّه وبفعل الضّغط الذي مورس عليه ينضم لجماعة " يزيد بن لحرش" فهو مراقب من قبل الدولة لأنه تم اعتقاله بسبب التحاقه بمجموعة مسلّحة في الجبل، وبعد أن مورست الضّغوطات عليه في ظروف اشتباهه ومراقبته من رجال الأمن، التحق بالمجموعة الإرهابيّة، وتورّط في قتل صديقه الصّحفي محمّد اليوسفي، وقد أبدع السّاري في توصيف مشهد قتل الصّديق الصّحفي بدم بارد، إذ يقول الرّاوي في ذلك (صاح محمد يوسفي بكل ما تبقى من له جهد– : لست عدو الله والإسلام ... أنا مسلم مثلكم أصلي، وأصوم – صلاتك صلاة المنافقين وهي باطلة لا يقبلها الله....قهقه يزيد لحرش بصوت مرتفع وقال– : أمسك الرأس جيدا كي أتمكن من إتقان الذبح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا: ذبحتم فأحسنوا الذبح. ودون أن ترتعش يداه، مرّر السكّين على الرّقبة فانفجر الدم بقوة، ارتعش الجسم في حركات حادّة متتالية، ارتفع شخير مخنوق ثمّ توقّف) [1]

فهذا المشهد لا إنساني رسمه الرّاوي بدقّة متناهية يحمل معنى الهمجيّة والاستهزاء بسنّة الرّسول الكريم(ص)، فـ(الإرهاب ليس حدثا بسيطا في حياة المجتمع وقد لا يقاس بالمدة التي يستغرقها ولا بعدد الجرائم التي يقترفها، بل بفظاعتها ودرجة وحشيتها وعندما يتعلّق الأمر بالجزائر فإنّ الإرهاب تقاس خطورته بتلك المقاييس جميعا؛ إذ استغرق مدة غير قصيرة وارتكب جرائم كبيرة، وارتكبها بفظاعة بلغت أقصى ما بلغته الهمجيّة) [2]

[1] - ساري، محمد: الورم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ،2002، ص 180-181.

[2] - عامر مخلوف: الرواية والتحولات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية) منشور ات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2000م، ص90.

دافعت الجماعة الإرهابيّة عن فكرة ما يُسَمَّى بـ(إسلام السلف الصالح)، إذ رفضت هذه الفكرة الحياة الجديدة، وأخطر ما قرَّرته هذه الجماعات هو إلغاء الآخر، وهنا لابدّ من إعادة قراءة النّصوص المقدّسة قراءة تلائم إنسانية المقدس لا انغلاقه، وهذا يتوافق و ما قدّمته الحركة التنويريّة التي ترى (إنَّ الاختلاف بين الأديان والمذاهب اختلاف في التّصوّرات، ذلك إنَّ الأصل في الإنسان الاختلاف والمغايرة، على أنّ ما يجمع هذه الأديان والمذاهب الإيمان بالإنسان)[1]، فالاختلاف إذا لم يؤطر بإنسانيّة الإنسان سيميل الواقع إلى مأساة. فالأساس الضابط لمجريات الاختلاف هو الإيمان بالإنسانيّة، والقول بحتميّة الحريّة بتنوّعاتها، فالتنوّع يحُكم بحريّة المرء بفعل أي شيء لا يخالف الشّرع أو القانون أو العرف.

ولعلَّ فترة العشرية السَّوداء في التِّسعينيات كانت من أكثر الفترات التي حظيت باهتمام الأدباء والدّارسين في حقل الرِّواية، وقد رصد المشهد الرِّوائي في الجزائر الأحداث السّياسية والاقتصاديَّة والدينيّة التي كلّفت الشّعب الجزائري الكثير من الدّم، وكان الإرهاب عنوانها العريض، اختلط فيها الحابل بالنّابل، وما أدى ذلك إلى نشوب حرب أهليّة في الجزائر، زهقت أرواح أناس كثر، وذلك بعد فشل " الاشتراكيّة " في تنفيذ وعودها في تحقيق طموح الشّعب. حضرت ثنائيَّة الرَّعب والإرهاب في رواية أدب المدينة الفاسدة، وعلى سبيل المثال لا الحصر في" رواية حبيبي مونسي" على الضفة الأخرى من الوهم؛ إذ استطاع مونسي إشراك قارئه بمتابعة الأحداث الدّمويّة، حينما قدّم التاريخ بطابع سردي فنِّي مميّز تكون شخوصه جزءاً من الذَّاكرة العربيّة، والوعي الشّعبي، أمَّا البطل عبد الرحمن الذي عاش صراعاً في ذاته وزمانه ومكانه، قد قضى معظم حياته في فرنسا، يعود إلى الجزائر بلاده، ويختبر أوضاعاً وأحداثاً دامية على أرض الواقع، تسيطر على تفكيره ، وتمدّه بحشد من الأسئلة عديمة الإجابة، ففي حوار بين عبد الرحمن وابن

[1]- الصدّيق، يوسف: الآخر والآخرون في القرآن، دار التنوير، القاهرة، ط1، 2015م، ص:25.

عمِّه يسأل البطل هل يعود الإرهابي لينتقم من أهله فيكون جواب ابن عمه (إنَّنا لانعرف هويّة من يقتل، ولا كيف يقتل، ولا كيف يستطيع أن يرتكب هذه الجرائم الفظيعة دون شفقة أو رحمة، إنّها جرائم لا يصدِّقها عقل ..ما كنّا نحتسب أن إنساناً يقول لا إله إلا الله يقدر على ارتكاب هذه الأفعال الشّنيعة مهما كانت الأسباب الدّافعة لذلك) [1] أوضح المقتطف السّابق عواقب تمركز السّلطة في يد فئة معينة، فيؤدي ذلك إلى تهميش الآخر الذي لن يطول به تحمّله على القمع والتهميش فيؤدي ذلك إلى ظهور(نوع من التطرّف قوامه أنّ الحرب لا تقوم إلّا على الاختلاف والمخالفة، هنا تظهر الذاتيّة الأنانيّة وتموت الإنسانيّة قهراً، كلّ شيء يعبّر عن الإنسان يموت داخل المتطرِّف وكلّ علاقاته مع كلّ عيان إنساني يموت، فيصبح لا يرى فتنة السّلطة التي ستؤدي إلى الموت، إلى العشريّة الدمويّة.) [2]

وقد بدا إبراز النماذج البشريّة على أنها وحوش من قبل السّارد، تمرّست في القتل والإبادة، وهذا ما جعل النّاس يحيون في دوّامة الخوف والرّعب، وكل ذلك بسبب الفساد السّياسي، الذي أفرز هذا النّموذج المنبوذ الذي بثّ الرُّعب والفوضى في كلَّ مكان من الجزائر، ومازال ماثلاً في حياة مجتمعات المسلمين إلى هذا اليوم، وهذا ما بدا واضحاً في مشاهد الرّواية، ولاسيّما في الحوار نفسه بين عبد الرّحمن وابن عمِّه: (لم يكن يجد من استطاعة تحمُّل القليل من هذا الحديث الذي تقطر كلماته دماً والذي تعمر ظلال كلماته أشباح الموتى ...إنّ لغته في أذن عبد الرحمن رجع كوابيس يختلط فيها الواقع بالخيال ..هل الإرهابي إنسان؟ هل هو كائن خرافي ...التفت إلى ابن العم، وقال فيما يشبه السّذاجة: هل رأيت إرهابيّاً؟ ... أتمنى على الله أن لا يريني وجه أحد منهم) [3]

[1] - مونسي، حبيب: على الضفة الأخرى من الوهم، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص 106.
[2] - لقراني لمياء ومليط زينة: شعرية العنف في رواية على الضفة الأخرى من الوهم لحبيب مونسي، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، إشراف: أ.د. توفيق قحام، جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل، الجزائر، 2017-2018م، ص 58.
[3] - مونسي، حبيب: على الضفة الأخرى من الوهم، ص 109.

لقد خيّم الموت على مشاهد الرّواية، لأنّ الإرهاب يعني الموت المحتّم للآخر الذي يرفضه، ولا يتقبّل إيديولوجيّته. بل بدا الحديث نفسه مرعباً للأطراف المتحاورة.

الحروب:

إنّ المشهد الذي يهيمن على مسرح حياة العرب، هو مشهد الحرب سواء أكانت تلك الحرب سياسيّة أم عسكريّة أم ثقافيّة وهي الأخطر، وهذه الحروب إنّما هدفها واحد هو الاستيلاء على السّلطة، والتحكّم بمصير الشّعوب.

ولعلّ الحرب الأخطر هي الحرب الثقافيَّة، على أساس أنَّ الثّقافة هي القيم الماديَّة والرّوحيَّة التي يخلقها المجتمع في حركته التاريخيَّة وأنّ المثقف هو حامل تلك القيم وروح المجتمع وبؤرة التّراكمات الفكريَّة ونقطة الشّروع في التَّحوّلات الاجتماعيَّة والسّياسيَّة والتّاريخيّة .وهي على نوعين، إمّا حرب من الدّاخل ، وإمّا حرب من الخارج ، فالحرب الثّقافيّة التي تبدأ من الدّاخل هي التي فيها تبدّل في مواقع كلّاً من الكاتب والقارئ ، فالكاتب هنا إنَّما يخاطب الآخر بوصفه إمّا صديق / مناصر، أو عدو / مخالف، وبالتالي ستختلف وظيفة التّلقي عند القارئ، لانّه سيبادل الكاتب نفس الصّداقة أو العداوة، وفي ذلك إنقاص من حقِّ النّصِّ بحدِّ ذاته وقصور في مكانته، وإفساد مهمَّة الكاتب، ووظيفة القارئ، لأنَّ مهمَّة الكتابة يجب أن تكون إيجابيَّة لها أهداف مرجوّة ، تستجدي المصلحة العليا والمنفعة لكل الأطراف .أمّا الأخرى، فهي التي تكون من مخلّفات الحروب أو مايسمَّى بالاحتلال والغزو، ففيها يتمّ التّوجّه المنظّم والممنهج نحو تقويض البنى التّحتيّة للبلد المحَتل، وهذه سياسات عالميّة ، تتكرّر تاريخيّاً وسياسيّاً، ولعلّ المثقّف العربي يعيشُ أزمةَ؛ سببها حركة المجتمع وتحوُّلاته السّريعة والمضطربة، فهو دائم القلق حيال هذه التَّحديات، يحمل الهمّ الجمعي على عاتقه، فالمثقَّف حامل تلك القيم وروح المجتمع وبؤرة التّراكمات الوعيويّة ونقطة الشُّروع في التّحوّلات الاجتماعيَّة

والسياسيَّة، وقد صوّر الرِّوائي العراقي هذه الظاهرة ، فعلى سبيل المثال في رواية " ليلة سقوط بغداد " بدا قلق المثقَّفين من الحرب، وقد امتازوا بتحليل المشهد بعمق أكثر من غيرهم وهم يفكِّرون بالبنى التّحتيّة ، إذ نجد هذا المقتطف السِّردي :(كنت أعلم أنَّها حرب فاصلة، وأنَّها ليست كالحروب السابقة، دون أن يبخس ذلك شيئاً من أي منها، معاذ الله ...

لكنّها حرب مختلفة: بعد أن يهدأ كل شيء، إذا هدأ؟! ستكون الحرب أقوى، وستطال كل ما لم يستطع القصف أن يطاله. ستكون الحرب بعدها موجهة نحو كل القيم والعقائد التي جاؤوا أصلاً من أجلها، وبعد أن ينتهي القصف ستبدأ الحرب الحقيقية) [1]

لم يكن الخوف من القصف أو الموت هو المهيمن على المشهد، بل كان الخوف ممّا بعد القصف، إذ تنفلت الأمور، وتظهر معادن النّاس على حقيقتها، عندما يوفِّر لها المُحتَل البيئة المناسبة، فعندما تنعدم الرّقابة بمصادرها الرّئيسة " الدين – الضمير – القانون " ستطفو اللا أخلاق؛ البغاء والقتل والسّرقة باسم الأحزاب وغيرها وتصفية الحسابات القديمة (إنّ هذه الظّواهر السّلبية التي تنامى وجودها مع الغزو الأمريكي للعراق، والتي تتسلّل إلى على السّطح عقول الأفراد، في الوقت الذي غابت فيه القوّة الكفيلة بمقاومتها، في ظلِّ توفُّر أجواء من الإغراءات الشّديدة بتلك الأشياء التي كانت ولا تزال ممنوعة، إلَّا أنَّ الفرق يكمن في غياب الرّقابة الي تمنع انتشارها) [2] أدى الاحتلال الأمريكي للعراق إلى حدوث نتائج على المستوى الثقافي، حيث تعرضت ثقافة هذا البلد الشّموليّة إلى تدمير كبير في محاولة من قوات الاحتلال القضاء على ثقافة الحضارات السَّابقة واللاحقة، وما تمّ التَّوصُّل إليه من تطوُّر علمي وثقافي ...

[1] - العمري، أحمد خيري: ليلة سقوط بغداد " المفقود والمولود في تاريخٍ خرج ولن يعود "، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط:1، 2004م، ص 20 – 21.

[2] - صالح، صالح خلف: آثار الاجتياح العراقي للكويت على العلاقات العراقية – الأمريكيّة (1988- 2008)، رسالة ماجستير في العلوم السياسيّة، بإشراف: د. عبد المجيد علي العزام، جامعة الشرق الأوسط، عمان،2010م، ص 165.

لقد بدا وعي الرّاوي الطبيب بالتبدِّي من خلال " مونولوج " مع نفسه ، فهو من الشّريحة المثقَّفة التي تمتاز ببعد النّظر، وتقييم وتحليل ما يحدث حولها، والرّاوي هنا قد بثَّ مخاوفه من الحرب الأكبر، وهي الحرب الثقافيّة التي لا تبقي ولا تذر من القيم والعقائد التي بُني عليها المجتمع العراقي، ورافقته في مراحل تقدمه أو رجعيتّه، فليس تحطيم البنى الفوقيّة هي مثار قلقه، بل البنية التحتيّة، ومنظومة القيم هي التي اربكته وأخافته، فالبنى الفوقيّة من الممكن ترميمها بسهولة، وبوقت أقلّ، أمَّا الأخرى فمن الصعب إعادتها كما كانت عليه، فتحطيمها يعني انتهاءها.

وفي الحديث عن الحروب لا بدّ من المرور على الأثر السَّلبي لـ " الدّين " أو لنقل الفهم الخاطئ للدِّين، و هو ما كان يؤجِّج ويؤسِّس للحروب، ولا سيَّما في المنطقة العربيّة، فالدِّين لم يعد رسالة سلامويَّة توجيهيّة، وإنّما أصبح عبارة عن إيديولوجيّات متصارعة، ومن المؤسف القول إن الإسلام بات سلاحاً دمويّاً، وصار يُساء فهم خطابه الحقيقي الذي جاء به النَّبي محمّد" ص"، فأصبح يعدُّ " مشكلة " في حدّ ذاته، في طور ما عشناه، وما نعيشه اليوم، وليس الإيمان، بل الإسلام كما يُفسّر، وهذا أساس المشكلة، وليس أساس الحل . كما يدّعي الإسلامَويّون . ففي رواية " حكاية وهابيّة " يظهر الخلاف الدّيني في الإيديولوجيّات، ليقود الصّراع ، و ليس صراعاً إيديولوجيّاً إنَّما صراع سياسي دمويّ، فلا اعتراف بالآخر، والفكر التّكفيري هو الذي يقود الحرب في نهاية المطاف، وهو الذي يعلن بدايتها. ففي النّقاش بين الرّاوي وعمر زميله في الفكر السّلفي في إحدى أطوار حياته، نجد هذا المقتطف السّردي: (– هل تدعو إلى حرب تأكل الأخضر واليابس؟

- ألا ترى أنَّ هذه الحرب قائمة اليوم، لكنّها لا تأكل سوى أخضرنا فقط؟! ياعزيزي يجب أن لا نخشى توسيع دائرة الحرب، وفتح الجبهات على أمريكا والصّهاينة. أمريكا والصّهاينة لا يرعوون إلا حين تفتح عليهم الجبهات.

- صحيح والدَّليل ما فعله حزب الله في لبنان في حروبه ضدّ إسرائيل.
- حزب الله مثله مثل أمريكا والصّهاينة بالنسبة إلي، .... وحربه مع الصّهاينة هي حرب تشبه اختلاف اللصوص على الغنائم!) [1]

في هذه الرواية، يوجد صراع بين إيديولوجيتين مختلفتين، الأولى إيديولوجيا الرَّاوي نفسه ، والأخرى إيديولوجيا " عمر" والملفت للنَّظر أنّ هذه الرِّواية بالذَّات، لم تعبّر عن إيديولوجيا الرِّواية، وإنّما قدّمت الرِّواية كإيديولوجيا، ولا تكون الرِّواية كذلك إلا بعد تمثّل الصِّراع بين الإيديولوجيات في الرّواية، فالرّواية كإيديولوجيا هي نفسها موقف الكاتب، وليست مجموع مواقف أبطال الرِّواية، وموقف الكاتب تصوُّر شمولي، لكلّ التَّصوّرات والمواقف للشخصيّات، التي ليس لها هدف في الرِّواية إلا إضافة أبعاد جماليّة . فالراوي عبد الله المفلح، صوّر نفسه في الرِّواية، وهو يعيش حالة أسماها بـ " الانتكاس "، حينما ارتدَّ عن مواقفه المتشددة في الدِّين الوهّابي الذي عرف بدعواته الجهاديّة الإرهابيَّة، وعاش حالة معتدلة أقرب إلى العلمانيّة، وتعدّد الأصوات، وتباين الإيديولوجيات في الرِّواية، كانت تمثّل أصوات شرائح اجتماعيّة متعددّة، وليست هي عبارة عن خطابات معاد إنتاجها(في الرِّواية الإنسان الذي يتكلَّم وكلامه هو موضوع لتشخيص لفظي أو أدبي، وليس خطاب المتكلِّم في الرِّواية مجرد خطأ منقول أو معاد إنتاجه، بل هو بالذّات مشخّص بطريقة فنيّة، وهو خلافاً للدراما مشخّص بواسطة الخطاب نفسه "خطاب الكاتب ") [2]

وفي الرِّواية نفسها " حكاية وهابيَّة " وهي الرِّواية التي سلّطت الضَّوء على واقع المجتمع السُّعودي، والجانب الدّيني على وجه الخصوص، إذ عاينت الرِّواية مسار الإنسان المأخوذ بالدِّين، وكيف استطاع التعرّف على الدين الحق، بعد أن تعمّق في فكر مايسمّى بـ" جماعة الصَّحوة "، وما رآه من فعل وفكر ينافي رسالة الإسلام الحقيقية،

[1]- المفلح، عبد الله: حكاية وهابية، ص 286.

[2] - لحمداني، حميد: النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط:1، 1990م، ص 35.

وكيف أنّ الرّاوي استطاع أن يكشف الآثار السّلبية للدعوات الجهاديّة، وزيفها في معظم الأحيان، وكيف استردّ نفسه من براثن الدَّعوات الدِّينيَّة، واستعاد توازنه الفكري الإيديولوجي والاجتماعي النَّفسي، إلا أنّه استطاع تقديم المشهد بوعي مفكر وعدسة فنَّان ملهَم، ليقدم مشهد التَّخبط الدّيني، الذي مثّله تعدُّد الفتاوي الدّينيّة أمام غزو عربي لدولة عربيّة، فبدا وكأنّ المشكلة ليست في إدانة الغزو أو في تدمير أواصر الأخوّة بين بلدين شقيقين، بقدر ما كانت المشكلة إدانة الّتدخّل الأمريكي، أو التّرويج له والتَّرحيب به: ونجد هذا التّخبط في المقتطف الآتي:(ازداد الارتباك حين ظهرت فتوتان دينيتان معبِّرتان، واحدة من هيئة كبار العلماء السُّعوديين تؤيِّد بدخول القوات الأمريكيّة للسّعوديّة من أجل رد العدوان وتحرير الكويت، وواحدة من الشَّيخ الألباني ترفض الاستعانة بالقوَّات الأمريكيَّة. لم ترق فتوى الاستعانة لمشايخ الصّحوة، وبالتالي لم ترق لشباب الصّحوة الذين التقطوا مشاعر وآراء مشايخ الصَّحوة حول تلك الفتوى. لقد كان الخلاف الفقهي حول جواز الاستعانة بالقوات الأمريكيَّة هو كرة الثّلج التي تدحرجت مكوِّنة الخلفيَّة لكلِّ ما جاء بعدها ...لقد ظنَّت هيئة كبار العلماء أنَّ القوَّات السّعودية أو العربيّة تكون قارة على صدّ الهجوم العراقي المحتمل، ولهذا جاز الاستعانة بالكافر لإيقاف " البعثي " كما فعل النبي " ص " حين استعان بدليل من مشركي مكة يوم الهجرة، وكما فعل حين استعان بصاحب بستان كافر في الطَّائف.... إضافة إلى الاستدلال بالقاعدة الفقهيَّة التي تقول " حين تحصل مفسدتان، ترتكب الأصغر دفعاً للأكبر" وهي القاعدة المعروفة باسم " قاعدة أخف الضّررين") [1]

أوضح المقتطف السّابق التَّعالق بين الحرب والدّين، كما أنّ الأخذ بالدين المشوّه، هو سبب الالتفات إلى الجزئيَّات، والالتفات عن جوهر المشكلة أو الموضوع.

[1] - المفلح، عبد الله: حكاية وهابية، ص 282 – 283.

وهناك نوع آخر من الحروب والقتل، وهو القتل الانتقائي، من أجل الإبقاء على فئة واحدة من حقّها العيش، وكأنَّ الحياة أشبه بمنحة لمن يتحكّم في أخلاقه ويأخذها إلى منطقة الخير الذي لا يخضع لأي أسس، فالخير والشر يكونان وجهان لعملة واحدة، وفي رواية" تل المطران" نجد مشهداً حوارياً ووصفياً بين البطل الرّابي والقسّ الذي كان يسوِّغ القتل والحروب من أجل المثل الخالدة وكأنَّه يراها نوعاً من التكيُّف الأخلاقي:(علينا أن نقسِّم العالم إلى أخيار وأشرار، ونجعل الأخيار يتخلَّصون من الأشرار.. كان يتحدَّث عن القتل الضَّروري، عن الإبادة الحقيقيَّة والصَّريحة لمجتمعات لم تعد صالحة للحياة، وكان يزيِّن فكرة بأنَّ الموت ليس مسألة مخيفة إلى هذا الحدِّ ...كان يدور ويصرخ " علينا أن نتخلَّص من نصف البشريَّة") [1]

يظهر القس في الرّواية بفكر مجرم حرب، يتوكأ العنف لتحقيق هدفه، لأجل منفعة خاصّة، وفي ذلك خرق مرجعي للوظيفة التّداوليّة للقس التي تتمثَّل بالدعوة إلى الخير والسّلام في العالم فقتل الآخر الشرير . بحسب زعمه . أسهل من تغييره إلى شخص خيِّر، ويرى كولن ولسن (إنَّ الدَّافع الإجرامي ليس شذوذاً أو جنوحاً لفعل الشَّرِّ أكثر من فعل الخير، بقدر ماهو مركَّب طفولي وميل طفولي يدفع إلى الاستسهال والاختصار، كلّ جريمة تنطوي على . أو ذات . طبيعة تتسم بالتّدمير والانتزاع واغتصاب شيء والاستيلاء عليه بغير استحقاق بالقوّة أو بالإغارة أو العنف، هي نزعة للحصول على شيْ مقابل لا شيء) [2]

إنَّ الرِّواية العربيّة المعاصرة لم تتناول المواضيع الطوباويّة، بل تناولت قضايا واقعيَّة، وأيّة رواية واقعيّة توشك أن تكون ضحية مواضيع الفساد والدِّيستوبيا وجوانب مؤلمة ومظلمة من تاريخ العرب السياسي والعسكري، كالروايات التي تناولت القضيّة العربيّة

[1] - بدر، علي: الطريق إلى تل المطران، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2005م، ص97.
[2] - ولسن، كولن: التّاريخ الإجرامي للجنس البشري سيكولوجيا العنف البشري، تر: رفعت السيد علي، جماعة حور الثقافية، القاهرة، ط:1، 2001م، ص 10.

الأولى "فلسطين " وما جرّت قدسيَّة المكان من ويلات وحروب على الشّعب الفلسطيني. وكثيرة هي الرِّوايات التي تناولت هذا الموضوع، ومنها روايات "إبراهيم نصر الله " ولعلّ روايته " زمن الخيول البيضاء" هي الأكثر شهرة وإيغالاً في التّاريخ، فقد استطاعت معاينة المشهد الفلسطيني بعمق، إذ إنَّ هذه الرِّواية أرّخت لدور العرب في حرب 1948م، ممثّلة " بجيوش الإنقاذ"، وأطوار الهزيمة من خلال تصويرها لأحد المنعطفات التَّاريخية الكبرى في تاريخ العرب الحديث، وهو اغتصاب فلسطين وإقامة الكيان الصهيوني، وأتت الرّواية على تفاصيل ضياع فلسطين ، كحفر خندق الهادية، الذي يُعدُّ حدّاً فاصلاً بين مستعمرة اليهود والقرية، وبنَفَس سردي درامي تتنامى الأحداث، فبعد أن يتمّ سحب السّلاح من يد أهالي القرية، يغدو السّكان فريسة سهلة لليهود، خاصّة بعد انسحاب جيش الإنقاذ ليلاً، وعلى إثر ذلك يتسلّل اليهود، ليرتكبوا مجزرة عنيفة بحقّ النّاس العُزَّل، ويقول السّارد في الرِّواية في توصيف الواقعة: (نمنا ونحن واثقين أنَّ هنالك جيشاً يحمينا، وفي الصباح حين ذهبت للصَّلاة، أحسست بحركة غريبة، كانت الأرض التي تركنا جيش الإنقاذ فوقها ليلاً فارغة، كأنّها انشقت وابتلعتهم، لم يبق أحد، كنت قد وصلت المسجد، حين سمعت تلك الأصوات الغريبة، عرفت فوراً أنّهم اليهود...) [1] بيّن المقتطف السّابق صدمة البطل من الحدث الجلل، عندما خلت الأرض ممَّن عليها من جيوش الإنقاذ العربيّة . وتركت القرية لقمة سائغة لليهود، وتمتاز هذه الرِّواية بأنّها (تعيد الكتابة لا كما حفظه التاريخ الرَّسمي ودوَّنته المدوّنات التّاريخيّة الرّسميّة، وإنّما تؤرِّخ وتردّ على التّاريخ الرّسمي من خلال الوثائق والأحداث الفعليّة من عسكريّة وسياسيّة. وتورد في قلب هذه الوقائع الفعليّة حكايات البشر والشّخصيَّات.) [2] ويستمر السّارد في تقديم التَّفاصيل المريعة التي وقعت جرّاء الخيانة والغدر العربيين، إذ يقول في مشهد مأساوي لا إنساني: (سألني حسن:

[1] - نصر الله، إبراهيم: زمن الخيول البيضاء، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط:6، 2012م، ص 488.
[2] - يعقوب، ناصر حسن، وحتاملة، حنان أحمد: رواية زمن الخيول البيضاء بين التاريخ والفن، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد العاشر، الأردن، ع :2، 2013م، ص6.

شفت أبوي؟ قلت: لا. فجأة بدأ يركض نحو بيت أبيه فقلت له انتظر. كان علينا أن نتسلل بحذر لنعرف أين أصبحوا ...وكلّما كنّا نصل إلى بيت كنّا نسمع البكاء والصُّراخ فيه، كان القتلى في كلّ مكان، فاجأوا النَّاس نائمين، وكنّا نعتقد أنّنا في حماية جيش الإنقاذ، لكن الحق علينا يا عمّي، فنحن ننسى، الله كم ننسى؟!!، يا عيبنا كم ننسى، كيف نسينا أنّهم خدعونا عام الـ36، كيف؟!! أرسلوا لنا جيوشاً صنعها الإنجليز واليهود لنقاتل الإنجليز واليهود الذين يحميهم الإنجليز، كيف صدّقنا؟) [1]

خيّم الحزن والأسى على المشهد السّابق، فكان البكاء والعويل يلفّ المشهد الدّرامي، ومظهر القتلى الذين أُجهز عليهم وهم نيام كان بعيداً كلَّ البعد عن الإنسانيّة، وسبب هذا المآل خيانة جيش الإنقاذ العربي، وانسحابه دون إبلاغ الاهالي ليتأهبوا للقادم، وقد أعاد المقتطف استرجاع خيانات عربيّة سابقة، من العرب تجاه الفلسطينيين، كما حدث في عام 1936م، أيام الثّورة الفلسطينيّة الكبرى ضدَّ الاحتلال البريطاني، كما بدا النّدم واضحاً على الفلسطينيين لأنّهم عاودوا الثّقة بأشقائهم العرب بعد إرسالهم لجيوش إنجليزية ويهوديّة، لمقاتلة أقرانها، وهذا ما لن يحدث، ولكن الممكن الحدوث هو أن يغدر العربُ الفلسطينيين في حربهم المصيريّة0

[1]- نصر الله، إبراهيم: زمن الخيول البيضاء، ص490.

الخاتمة:

مما تقدّم نجد: إنّ السلطة السّياسيّة في بلادنا العربيّة لسيت سلطات مثاليّة، بل هي أقرب ما تكون إلى التّسلّط؛ فالسلطة ضرورة اجتماعيّة ونفسيّة لغرض سام يهدف إلى تنظيم أمور المجتمع، وهي بذلك تسمو لتغدو ضرورة أخلاقية. أمَّا التسلط فيضم معاني الظّلم والقهر والإرهاب والعنف والإكراه، فالإرهاب لم يكن حدثاً عابراً في روايات أدب المدينة الفاسدة، بل كان بطلاً وشخصيّة رئيسة، وهذا ما لامسناه في قراءاتنا للإنتاج الرِّوائي العربي، كما أن السّلطة هي مكمن الفساد في المجتمع لاحتكامها إلى الدين المغلوط ذي الإيديولوجيا المقيّدة. كما أنّنا نجد أنّ الحروب التي جرت في البلاد العربيّة كانت سبباً ونتيجة للفساد السياسي، وقد تناول روائيّو المدينة الفاسدة الحروب والغزو في رواياتهم على أساس أن التّاريخ والأدب لا ينفصلان، والرواية الحقّ هي التي لا تنفصل عن الواقع، بل تصوّر الجوانب السّلبية قبل الإيجابيّة، بما يتماشى ومهمة الأدب في تحسين الواقع وتجنّب تكرار الوقوع في الأخطاء نفسها التي تهاوت بواقعنا المعيش إلى الحضيض.

قائمة بالمصادر والمراجع:

1- ايغلتون تيري: نظرية الأدب، تر: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، (د.ط)1995 م.

2- ايغلتون تيري: كيف نقرأ الأدب، تر: محمد درويش، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط:1، 2013م.

3- الأنصاري، محمد جابر: تحولات الفكر والسياسة في الشّرق العربي 1930-1970، سلسلة عالم المعرفة (35)، الكويت ،1980م.

4- - بدر، علي: الطريق إلى تل المطران، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2005م.

5- بيك، أولريش: السلطة والسلطة المضادة في عصر العولمة، تر: جورج كتورة وإلهام الشعراني، المكتبة الشرقية، بيروت، ط:1، 2010م.

6- خليل، وليد أسامة: أحببت يهودية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط:1، 2014م.

7- راسل، برتراند: السّلطة والفرد، تعريب: شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنّشر، بيروت، ط:1، 1961م.

8- ساري، محمد: الورم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ،2002،

9- السّعداوي، نوال: إنّه الدّم، مؤسسة هنادي، المملكة المتّحدة، 2021م.

10-السعداوي، نوال: كسر الحدود، مؤسسة هنداوي، سي آي سي، المملكة المتحدة، 2017م.

11-شحرور، محمد: دراسات إسلاميّة معاصرة في الدولة والمجتمع، الأهالي للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط:4، 1997م.

12-شحرور، محمد: الدّين والسّلطة قراءة معاصرة للحاكميّة، دار السّاقي، بيروت، ط:1، 2014م.

13- صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ج:1، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982م.

14- الصدّيق، يوسف: الآخر والآخرون في القرآن، دار التنوير، القاهرة، ط1، 2015م.

15- العاني، نزار محمد: أضواء على الشخصية الإنسانية (تعريفها، نظرياتها، قياسها)، وزارة الثقافة والإعلام العراقيَّة، دار الشؤون الثَّقافيَّة – بغداد، ط1 ،1989.

16-عامر مخلوف: الرواية والتحولات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية) منشور ات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2000م.

17-عبد الرحمن، طه: سؤال العنف بين الائتمانيّة والحواريّة، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط:1، 2017م.

18-- عبد السلام، رفيق: في العلمانية والدين والديمقراطية (المفاهيم والسياقات) دراسات حضارية، مكتبة الجزيرة للدراسات، الدراسات العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ط1، 2016م.

19-- عطية، أحمد عبد الحليم: جدل الأنا والآخر، قراءات نقدية في فكر حسن حنفي (سلسلة رواد الفكر العربي المعاصر)، مكتبة مدبولي الصغير، مصر، ط:1، 1997م.

20-العمري، أحمد خيري: ليلة سقوط بغداد " المفقود والمولود في تاريخٍ خرج ولن يعود "، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط:1، 2004م،

21-الغذامي، عبد الله: الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . بيروت، (د.ط)، 2004م.

22-فشير، عز الدين شكري: مقتل فخر الدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط:3، 2009م.

23-فشير، عز الدين: غرفة العناية المركّزة، دار الشّروق، القاهرة، (د. ط) 2008 م.

24-الكيلاني، نجيب: رحلة إلى الله، قصة الإخوان المسلمين الدّامية، الصّحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 2012م.

25-الكيلاني، نجيب: رحلة إلى الله، قصة الإخوان المسلمين الدّامية، الصّحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 2012م.

26-كوبر، روبرت. ل.: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، تر: خليفة أبو بكر الأسود، مجلس الثقافة العام، ليبيا، 2006م.

27-لحمداني، حميد: النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت . الدار البيضاء، ط:1، 1990م.

28-المفلح، عبد الله: حكاية وهابية، المركز الثقافي العربي، بيروت . الدار البيضاء، ط:1، 2013م،

29-مونسي، حبيب: على الضفة الأخرى من الوهم، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م

30-ميكافيللي: كتاب الأمير، تر: أكرم مؤمن، ابن سينا للطبع والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2004 م.

31-نصر الله، إبراهيم: زمن الخيول البيضاء، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط:6، 2012م.

32-ولسن، كولن: التّاريخ الإجرامي للجنس البشري سيكولوجيا العنف البشري، تر: رفعت السيد علي، جماعة حور الثقافية، القاهرة، ط:1، 2001م.

رسائل الماجستير والدّكتوراه:

1- السّواعير، سلام أحمد: توجّهات السّياسة الخارجيّة الأردنيّة تجاه أزمات الرّبيع العربي (2011- 2017 م) رسالة ماجستير في العلوم السياسية، إشراف أ.د. محمد القطاطشة، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، 2017م.

2- صالح، صالح خلف: آثار الاجتياح العراقي للكويت على العلاقات العراقية – الأمريكيّة (1988- 2008)، رسالة ماجستير في العلوم السياسيّة، بإشراف: د. عبد المجيد علي العزام، جامعة الشرق الأوسط، عمان،2010م.

3- لقراني لمياء ومليط زينة: شعرية العنف في رواية على الضفة الأخرى من الوهم لحبيب مونسي، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، إشراف: أ.د. توفيق قحام، جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل، الجزائر، 2017-2018م.

الدّوريّات والمجلات:

1- زرؤم، عبد الحميد محمد علي: مقاربات الخطاب السياسي عبر الأدب" دراسة تحليلية" مجلة الدراسات اللغوية، والأدبية، ع:2، الجزائر، 2015م.

2- يعقوب، ناصر حسن، وحتاملة، حنان أحمد: رواية زمن الخيول البيضاء بين التاريخ والفن، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد العاشر، الأردن، ع :2، 2013م.